

ضيق الأفق وقصر النظر (١)

بقلم/ كمال عبد القادر بامخرمة

"ضيق الأفق" آفة من الآفات ومشكلة من المشكلات، التي ابتلي بها كثير من المنتسبين إلى العمل الإسلامي. فما المقصود والمراد بها؟؟

الأفق في اللغة: واحد الآفاق التي هي الجهات أو النواحي قال تعالى "سنريهم آياتنا في الآفاق.. الآية". والنظر: هو تأمل الشيء بالعين قال تعالى: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت". وهو أيضاً: تقلب البصيرة لإدراك الشيء وتصوره، قال تعالى: "أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء.. الآية".

وعلى هذا: فضيق الأفق في اللغة: يعني انحسار أو انكماش جهة أو ناحية النظر والتأمل. وكذلك قصر النظر: يعني ضعف أو اختلال البصر أو البصيرة أو هما معاً. أما في الاصطلاح الشرعي أو الدعوي: فهو ضعف أو خلل في البصيرة يؤدي على حصر التفكير أو الرؤية في حدود ضيقة لا تتجاوز المكان والزمان.

وبعبارة أخرى: هو ضعف أو خلل في البصيرة يؤدي إلى رؤية القريب دون البعيد، والنظر إلى الأحوال دون الآثار والأمور دون العواقب. قال تعالى: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور".

ولضيق الأفق وقصر النظر أسباب، من أهمها:

١ - النشأة الأولى: فقد ينشأ الإنسان في بيئة لا تهتم كثيراً بتنمية الذكاء الفطري أو المواهب لدى أفرادها وتكون العاقبة انحسار دائرة التفكير والنظر والتأمل. كأن ينشأ الإنسان في بيئة تهتم بالأشكال دون المضامين، أو باللحظات الراهنة دون المستقبل، أو بظواهر المسائل دون بواطنها.. وعلى هذا ففس!

٢ - صحبة نفر من ذوي الأفق الضيق والنظر القصير: فقد يحيط الإنسان نفسه بصحبة تتصف بضيق الأفق وقصر النظر، فتسري آثار هذا الداء إليه، فإذا به يواجه كل المواقف بنفس النمط وعلى هذا المنوال.. إذ المرء على دين خليله! - كما قيل.

٣ - الانزواء أو العزلة: إن عدم مخالطة الناس قد يؤثر على الإنسان، مهما كانت أذاره في هذه العزلة، كأن يرى أنه غير قادر على التوفيق بين الفردية والجماعية، أو أنه يؤثر العافية والسلامة لنفسه، ومثل هذا وإن جنى كثيراً من ثمار العزلة، فإنه يخسر أول ما يخسر الخبرة أو التجربة، تلك التي تستفاد من معايشة الناس ومخالطتهم (دون أن يلزم ذلك مشاركتهم في الباطل أو موافقتهم على الضلال).

فمعايشة الناس تساعد على اتساع الأفق وبعد النظر، بإضافة خبرة وتجارب الآخرين إليه.

٤ - عدم الفهم لدور ورسالة الإنسان في الأرض: قد لا يفهم الإنسان دوره أو رسالته في الأرض كونه خليفة الله فيها: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة"، وأن هذه الخلافة إنما هي سيادة: "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" وعبودية: "وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون".

وأن تحقيق الدور يقتضي التبصر والتدبر في الملكوت من حوله والسنن التي يجري عليها وفي ذاته التي بين جنبيه ونشأتها وفي علاقته بالكون ومصيره المستقبلي، (تأمل الآيات التي تدعو للتأمل والنظر في القرآن الكريم، كم تتكرر، وماذا تشمل؟!).

إن مقتضى القيام بدور الاستخلاف والاستعمار في الأرض يستلزم فهم الحياة وتصور المصير وإدراك أسرار القدر واتباع إرشادات الشريعة!

٥ - عدم الفهم لحقيقة ومضمون الإسلام: فلا يفهم المسلم حقيقة ومضمون الإسلام من أنه دين شامل للحياة جميعاً إلى قيام الساعة: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً"، وأن الدعوة إليه والتمكين له في الأرض يقتضي الحكمة التي تكون من لوازمها اتساع وبعد النظر، كما قال الله تعالى: "قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني"، و"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة".

وقد لا يفهم المرء ذلك.. فيدعو إلى الإسلام ويعمل من أجل التمكين له دون أن يجهد نفسه في تحصيل الحكمة (وهي بعد النظر وعمق التأمل)؛ وأنى لمن حرم الحكمة.. أن يحقق تمكيننا وينشر دعوة؟!!

٦ - الإعجاب بالنفس (الغرور والكبر): قد يكون الإنسان ذا موهبة وملكة وقدرة، فيصاب بعجب في نفسه، فيغتر ويتكبر.. فيحمله ذلك على الترفع والاستعلاء عن أن يكتسب من غيره خبرة أو مهارة أو تجربة فيبقى طول حياته مقتصرًا على ما لديه مكتفياً بما معه -ظنا منه أنه حاز المعرفة والخبرة والكفاءة كلها!

لذلك ربي الإسلام في أتباعه خلق التواضع والاعتراف بالخطأ والتقصير، وأرشدهم إلى التشاور وسماع النصيحة وقبول الحق ممن جاء به؛ حتى لا يفوت الإنسان الخير مهما بلغ في مراتب الكمال.

٧ - ضعف الصلة بالله: وهذا أعظم الأسباب على الإطلاق، وكفى بالإنسان الغافل عن الله قصر نظره عن مآله ورجوعه إلى الله تعالى!

إن عدم الاحتراز من المعاصي والسيئات لاسيما الكبائر منها، أو المداومة على الصغائر، أو التفريط في عبادات اليوم والليلة، أو الإهمال لجانب الخير والإحسان للآخرين، قد يتسبب في حرمان الإنسان من الحكمة -التي هي أساس سعة الأفق، قال تعالى: "يا أيها الذي آمنوا إن تنقوا الله يجعل لكم فرقاناً"، وقال سبحانه: "واتقوا الله ويعلمكم الله".

مظاهر ضيق الأفق أو قصر النظر:

١ - سطحية التحليلات للمواقف والأحداث:

ونقصد بالسطحية النظر إلى الأشياء والأسباب القريبة الظاهرة والمباشرة التي تشكل الحدث أو المواقف دون التعمق إلى ما هو أبعد من ذلك، أو الحكم على الشيء أو الموقف من جانب واحد أو جزئية معينة دون جمع كافة الجزئيات أو تلمس الجوانب المختلفة، بحيث يشكل الناظر منهجاً أو قانوناً محدداً.

ومثالاً على ذلك التفات كثير من الناس إلى شعارات الزعماء أو الأحزاب دون النظر إلى تاريخهم القريب، أو دون النظر إلى شخصية ذلك الزعيم والمصالح التي تدفعه لرفع شعار براق، أو الجهل بأدبيات حزب ما وعدم الاطلاع عليها!!

وقد أثبتت الأحداث في الأمة أن الشعوب لا تزال عفوية وساذجة وتنسى التاريخ ولا تستطيع أن تقرأ الأحداث بأبعادها! وهذه السطحية خطيرة دون شك على أوضاع الأمة، وتؤدي إلى مفاصد كثيرة من تلميع الفسقة وأعداء الدين، أو الاستجابة لمخططات الأعداء.

ومن المؤسف أن يكون الدعاة إلى الله تعالى هم أول من يخدع، وأكثر من يتعجل، وأسرع من يستجيب للمؤثرات، لا لشيء سوى لأن الدوافع الحسنة وحسن الظن يمنعهم من التفكير الدقيق والنظر المتأنى. ومن هذا الباب أيضاً، محدودية النظر في المشاكل وطرق علاجها، حيث تختزل قضاياها ومشاكلنا في تغيير الأسماء دون المسميات، أو الصور دون المضامين، أو رمي التهمة للآخرين وإلقاء التبعات عليهم!! وغياب الرؤية الشمولية للأسباب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية... وما هنالك من الأمور، التي أصبحت تترابط بشكل يصعب معه - فك بعضها عن بعض.

فالذي يعزو تخلف الأمة إلى التخلف الاقتصادي فقط، أو السياسي فقط، أو التكنولوجي فقط، لم ينتبه إلى أن هذه مظاهر من مظاهر المشكلة، أو جانب من جوانبها، وليس سبباً أصلياً أو مستقلاً، ولو نظر إلى واقع العرب الذين بعث فيهم الرسول J، وقارن بين إمكانياتهم التي انطلقوا منها إلى العالم وما حققوه، وبين إمكانياتنا نحن وما حققناه، لعرف لب الداء وأساس البلاء!!

وإذا أخطأنا في تقدير أسباب المشكلة، فإننا دون أدنى شك سنخطئ مرة أخرى في تقدير العلاج، إذ أن بعض ضيقي الأفق من الدعاة ربما يعزو حال الأمة إلى انحراف الأخلاق لذا فالعلاج عنده هو إصلاح الأخلاق فقط، أو إلى ضعف روح العبادة فالحل هو إيجاد روح التنسك والزهد فقط، أو إلى قسوة القلب وغفلته فالعلاج عنده التذكير والمواعظ فقط، أو يعزو ذلك إلى أن الحكام فسقة وأنهم غير متدينين لذا فهو يسعى إلى الوصول إلى الحكم، إما بطريق ما يسمى بالتداول السلمي للسلطة، أو بالقوة والصدام المباشر!! وكما ترى فإن علاج المشكلة يتأثر تأثراً كبيراً بتحديد الأسباب حقيقة، فإن كانت الأسباب جزئية وبسيطة كان العلاج المطروح جزئياً وبسيطاً لا يحل المشكلة إن لم يزددها تعقيداً، وإذا كانت النظرة للأسباب شاملة عميقة كان العلاج المطروح مثلها وأقرب إلى الصواب.

٢ - الاستمرار على الأساليب القديمة ورفض كل جديد:

يميل البعض إلى الجمود على القديم دون مبرر شرعي، وهذا نظراً لطبيعة النفس البشرية الميالة إلى التقليد والتعلق بالماضي والموروث، لكنه في مقابل ذلك يعيق التجديد والتطور السنني الذي بثه الله في الكون والحياة، ويصبح القديم لديه مقياساً للجديد!

ولو أن إنساناً قال إن النبي J وأصحابه كانوا يحاربون على الخيل ويستعملون السيف والرمح والسهم في حروبهم مع الكفار، فيجب أن نلتزم بذلك اقتداءً بالنبي J وصحبه، فلا شك أن هذا الإنسان لن يحكم عليه بأقل من الجنون.. وهذا مثال بسيط على قصر النظر.. لن يخالف أحد فيه لظهوره، إلا أن هناك مسائل كثيرة يجمد عندها البعض لا يعرف حقيقة ضيق الأفق وقصر النظر فيها إلا العلماء الربانيون المتمكنون من العلم. وقل مثل ذلك في جميع الوسائل والأساليب التعليمية والتربوية والدعوية والإدارية والخطابية..

ولا شك أن التجديد في هذه الوسائل مشروط بأن لا يحصل التعدي على ثوابت الشريعة وكتلياتها ومقاصدها. فلا يجوز أن تغير ثوابت الإسلام بحجة التأقلم مع تغيرات العصر أو التعايش مع ظروف الواقع ونظمه وقوانينه!

٣ - التفكير في المكاسب الآنية لا المستمرة "عدم النظر إلى مآلات الأمور":

هناك نوع من الناس لا ينظر إلا إلى تحت قدميه، وما يحقق من مكاسب عاجلة، لأنه لا يمتلك أفقا بعيدا ولا نفسا موطنة على القليل الدائم لا الكثير المنقطع، فيكون كالمُنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى! ومن أمثلة ذلك، ما وفرته الديمقراطية في الشأن السياسي اليوم من جو من التنافس على السلطة والكراسي والمصالح، وفي وقت سريع وبتكاليف كما يراها البعض رخيصة، إلا أن الأحزاب والتنظيمات تنسى في ظل حمأة التنافس مبادئها وقيمها وثوابتها، وترتكب ما يناقضها ويضادها الشيء الكثير.. المهم أن لا تفوت فرصة الكسب السريع، حتى الحركات الإسلامية -بشكل أخص- فقدت كثيرا من مصداقيتها مع جماهيرها وقواعدها في سبيل الحصول على مناصب ومقاعد آنية.. فيما تشارك في طمس حقيقة الشورى والمسئولية التي تلقى على عاتق أولي الأمر، بل وتتنازل عن كثير من مواقفها ومبادئها في سبيل تشكيل تحالفات أو تآلفات للأغراض السياسية، وتبتعد كثيرا عن دورها في إيقاظ عقيدة الأمة وفكرها وضميرها!!

ومن أمثلة ذلك، الأعمال المرتجلة التي يقوم بها بعض الشباب انتقاما أو تهديدا وتوعدا في البلدان الإسلامية ضد الأنظمة، ظنا أن ذلك قد يغير من الأمر شيئا، حتى ولو حقق -بحسب رأيه- تراجعا في المواقف أو تغييرا في السياسات، إلا أن الأمر لا يلبث أن يزداد سوءا في هذه البلدان.. هذا مع إمكانية قيامه بالدعوة والتوعية والعمل في الأوساط الاجتماعية والشئون الفكرية والثقافية، وإصلاح المجتمع وزيادة الوعي! ولا يعني الحديث عن أبناء الدعوة أن غيرهم لا يقعون في هذه الأخطاء، على العكس فالأنظمة والمسؤولون في أوطاننا هم أول من يقع في فخ المكاسب الآنية المستعجلة، والتي سرعان ما تتدهور معها الأوضاع وتتعطل المصالح وتنشأ الإشكالات، على الصعيد الرسمي والشعبي.. والموفق من عصمه الله.

٤ - الخلل في تقدير المصالح والمفاسد، والترجيح بينها:

إن ضيق الأفق لا يمتلك القدرة على تقدير المصالح والموازنة بين بعضها، وبينها وبين المفاسد، فيما يُقدم عليه أو يحجم عنه؛ فقد يقدم على فعل شيء كان الأحجام هو الأصلح فيه، وقد يحجم عنه وكان الإقدام هو الأصلح له. وربما يكون هذا من قلة العلم. ولذا تجد ضيق الأفق يفسد أكثر مما يصلح وهو يحسب أنه من المصلحين! ولهذا يعاني العمل الإسلامي من هذا الصنف من الناس أشد المعاناة، فتجده يهدم أعمالاً جليلاً ومصالح عظيمة من أجل درء مفسدة يسيرة أو جلب مصلحة يسيرة!

ويترتب على ما سبق، عدم القدرة على ترتيب الأولويات والتدرج بناءً عليها في العمل والسير. فنقل الثمرة ويضيع الجهد وتتراحم المهمات!

هذه، بعض المظاهر والسمات التي تجلي شخصية "ضيق الأفق". ويبقى أن نتحدث في ختام موضوعنا عن أثر هذا الداء وكيفية علاجه.. بإذن الله تعالى.

للمقال بقية..